

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال الناظم - رحمه الله تعالى - :

فصل

في بيان النوع الثاني من التوحيد وهو توحيد الطلب والقصد وأنه هو معنى لا إله إلا الله

هذا وثاني نوعي التوحيد أفراد ربّ العرش عن نديد

أن تعبد الله إلهاً واحداً معترفاً بحقه لا جاحداً

الشرح :

هذا الفصل هو أعظم فصول هذه المنظومة في بيان أعظم الأمور وأجلها وأكبرها ألا وهو عبادة الله -تبارك وتعالى- وإخلاص الدين له ، وقد قال - عز وجل - { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } وهذا النوع من التوحيد متضمنٌ للنوع الذي قبله توحيد الإرادة والقصد والطلب متضمنٌ لتوحيد المعرفة والإثبات لأن من عبد الله - عز وجل - وأخلص له الدين فعبادته فرعٌ عن معرفته بالله - عز وجل - عرفه فعبدته وأخلص له الدين ، أما الذي وجد عنده توحيد المعرفة ؛ بمعنى أنه عرف الله واقرباً لأنه الخالق الرازق وآمن بما آمن به من أسائه وصفاته قد يكون مع هذا عابداً لله مخلصاً له الدين وقد يكون متخذاً الأنداد والشركاء ، أما الذي عبد الله وأخلص الدين له فإنه حقق التوحيد بنوعيه المعرفة والإثبات والإرادة والطلب ولهذا فإن هذا النوع متضمنٌ للذي قبله وأما الذي قبله فهو مستلزمٌ لهذا النوع ، بمعنى أن من عرف الله -تبارك وتعالى- يلزمه أن يخلص الدين له - جل وعلا - .

يقول - رحمه الله - (فصلٌ في بيان النوع الثاني من نوعي التوحيد) كان قد ذكر فيما سبق أن التوحيد نوعان توحيدٌ في المعرفة والإثبات وشرحه في أبيات عديدة مرّت معنا ، ثم ذكر هنا النوع الثاني من أنواع التوحيد وسماه توحيد الطلب والقصد ، ويسمى توحيد الإلهية ويسمى توحيد العبادة ، ويسمى التوحيد العملي ، ويسمى توحيد النية ، كل هذه الأسماء لمسمى واحد ومقصود واحد وهو أفراد الله -تبارك وتعالى- بالعبادة ، قال (توحيد الطلب والقصد) لأن مبناه على إخلاص القصد لله - عز وجل - والقيام بما أمر الله -تبارك

وتعالى - عباده به من العبادة ولزوم طاعة الله - جل وعلا - وإخلاص الدين له ، قال (وأنه معنى لا إله إلا الله) كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في كتاب التوحيد قال : [باب في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله] عطف شهادة أن لا إله إلا الله على التوحيد وهذا من باب عطف الدليل على المدلول لأن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله هو التوحيد ، فعطف المدلول على الدليل ، أو عطف على المدلول دليله ، فلا إله إلا الله هذه الكلمة هي كلمة التوحيد وهي دالة عليه ، بل لا توحيد للعبد إلا بتحقيق ما تضمنته هذه الكلمة وهي قائمة على ركنين النفي والإثبات ، النفي في أولها والإثبات في آخرها ولا توحيد إلا بهذه الركنين النفي والإثبات ، فمن نفى ولم يثبت يكون ملحدًا ومن أثبت ولم ينفي يكون مشركًا ، ولا يكون موحدًا إلا بالنفي والإثبات لا إله إلا الله ، ولا إله إلا الله نافية نفيًا عامًا لكل ما يعبد من دون الله - عز وجل - لأن إله نكرة في سياق النفي فيعم كل إله يعبد لا إله يعبد حقًا إلا الله نفت العبودية عن كل من سوى الله وأثبتت العبودية بكل معانيها لله وحده ولهذا لا إله إلا الله أولها نفي عام وآخرها إثبات خاص ، أولها نفي عام للعبودية عن كل من سوى الله ، أيًا كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا أو وليًا أو شجرًا أو حجرًا أو غير ذلك ، نفي عام عن كل ما يعبد من دون الله ، وإلا الله إثبات خاص للعبودية بكل معانيها لله وحده فهذا هو التوحيد ، التوحيد مدلول لا إله إلا الله ولهذا قال الشيخ هنا (وأنه) أي التوحيد (معنى) أي مدلول (لا إله إلا الله) فهذه الكلمة تدل على التوحيد ولا يكون العبد موحدًا إلا بها ، وهذا الفصل الذي عقده - رحمه الله تعالى - عقده لشرح هذا النوع من التوحيد الذي هو توحيد الإرادة والقصد الذي هو مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، قال :

هذا وثاني نوعي التوحيد أفراد رب العرش عن نديد

التوحيد نوعان : الأول مرّ وهو توحيد المعرفة والإثبات ، وهذا هو النوع الثاني ما هو ؟ قال (أفراد رب العرش عن نديد) الأفراد هو الإخلاص وهو الإيمان بوحداية الله - تبارك وتعالى - والبراءة من اتخاذ الأنداد والشركاء (رب العرش) أي الله - عز وجل - وإضافة العرش إلى الله إضافة مخلوق إلى خالقه ، وذكر العرش هنا لأنه أكبر المخلوقات ، فهو سبحانه رب العرش وما دونه ، جميع المخلوقات مربوبة لله - سبحانه وتعالى - لكنه خص بالذكر لأنه سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها ، فهو عرش عظيم وعرش مجيد وعرش كريم ، كما وصفه ربه - تبارك وتعالى - بذلك ، قال (أفراد رب العرش عن نديد) النديد هو الشريك وإفراد الله سبحانه وتعالى من أن يتخذ معه الشركاء ، قال تعالى ﴿ فلا تعجلوا لله أنداداً وأنتم

تعلمون { أنداداً أي شركاء ، فتوحيد العبادة هو إفراد رب العرش عن نديد ، إفراده أي بالعبادة وأن تخلص له وحده -تبارك وتعالى- وأن لا يجعل معه نديد أي شريك ، ثم زاد في بيان ذلك قال :

أن تعبد الله إلهاً واحداً معترفاً بحقه لا جاحداً

(أن تعبد الله إلهاً واحداً) أي مخلصاً له الدين -تبارك وتعالى- قال تعالى { وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم } وقال تعالى { إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً } قال تعالى { الله لا إله إلا هو الحي القيوم } قوله هنا (أن تعبد الله إلهاً واحداً) أي أن تفرد -تبارك وتعالى- بالعبادة لا تجعل معه أحداً غيره فهو المعبود تبارك وتعالى بحق ولا معبود بحق سواه ، (أن تعبد الله إلهاً واحداً) وهذا فيه نفى الشركاء ولا يكون ذلك إلا بالإخلاص ، قال تعالى { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } قال تعالى { ألا الله الدين الخالص } .

(معترفاً بحقه لا جاحداً) معترفاً بحقه وهو التوحيد وأنه حق الله على العبيد ، قال شيخ الإسلام [كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد] فتعترف بهذا الحق لله ، قال يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ ثم قال : [أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] هذا حق لله تبارك وتعالى على عبيده فيعترف العبد لله -تبارك وتعالى- بهذا الحق وإن العبادة حق لله وأنه تبارك وتعالى كما أنه المتفرد بالخلق والرزق والإنعام والإيجاد والإعداد والإمداد وغير ذلك فهو المستحق للعبادة وحده وأن يفرد بها لله وحده فهي حقه - جل وعلا- لذلك قال - جل وعلا- { ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل } قال تعالى { ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى } قال تعالى { له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون له بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال } .

(معترفاً بحقه) أي الله وحقه التوحيد (لا جاحداً) أي لا جاحداً لهذا الحق أو مستكبراً عن قبوله ، قال الله عن الكفار { إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون إنما لنتاركو آلهم لشاعرٍ مجنون } وقالوا { أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب } ، والتوحيد هو أن نعبد الله إلهاً واحداً هذا هو التوحيد ، والمشركون يتعجبون من هذا الأمر يقولون { أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب } فأخذوا يتواصونهم على المحافظة على نقيضه وهو الشرك { وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يراد } .

قال - رحمه الله - :

وهو الذي به الإله أرسلنا رسله يدعون إليه أولاً

وأنزل الكتاب والتبيان من أجله وفرق الفرقانا

الشرح :

قال - رحمه الله - (وهو) الإشارة هنا إلى توحيد العبادة ، وهو أي توحيد العبادة ، (الذي به الإله أرسل رسله) فالله - جل وعلا - بهذا التوحيد أرسل رسله ، قال تعالى { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } وقال تعالى { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } وقال تعالى { واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون } وقال تعالى { واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله { الشاهد قوله { قد خلت النذر } أي الرسل { من بين يديه ومن خلفه } لغاية واحدة ومقصد واحد ما هو ؟ ألا تعبدوا إلا الله ، هذا أمرٌ (به الإله أرسلنا) أي جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم فما من رسول بعثته الله - تبارك وتعالى - إلا ودعا قومه إلى توحيد الله ، بل إن أول شيء يبدأ به الرسل في دعوتهم لأقوامهم وأول شيء يقرع أسماع أقوامهم من الرسل هو التوحيد فبه يبدأون ولهذا قال (يدعون إليه أولاً) فهذا فيه أن التوحيد هو الذي كانوا يبدأون به ويقدمونه على غيره ولا يبدأون بغيره قبله ، فهو أول ما يبدأ به الرسل في دعوتهم لأقوامهم أرسلوا بالتوحيد وأول شيء يدعون أقوامهم إليه هو توحيد الله وهذا فيه أن التوحيد أولاً وأن منهج الرسل في الدعوة إلى الله - عز وجل - البداءة بالتوحيد ، هذا هو منهجهم من أولهم إلى آخرهم وقد قال الله - تبارك وتعالى - { قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني } فالبصيرة والنهج الذي كان عليه نبينا - عليه الصلاة والسلام - وكان عليه الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - من قبله هو الدعوة إلى التوحيد والبداءة به قبل أي شيء ، قال (يدعون إليه أولاً) وقد جعل نبينا - عليه الصلاة والسلام - وهذا الأمر منهج الدعاة كما هو واضح في حديث معاذ لما بعثه النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى اليمن قال [إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله] وفي رواية [أن يوحدوا الله] قال (وأنزل الكتاب والتبيان من أجله ...) الكتاب هنا أل في الكتاب للجنس والمراد جميع الكتب التي أنزلها الله ، ليس المراد كتاباً معيناً بل المراد جميع الكتب والكتب التي أنزلها الله - تبارك وتعالى - على رسله الكرام - عليهم صلاة الله وسلامه - كلها متفقة على الدعوة إلى التوحيد والبدء به ، بل إنها أنزلت لأجله ، لأجل التوحيد ، قال (وأنزل الكتاب والتبيان) وقوله هنا والتبيان ذكر هنا - رحمه

الله - أن العطف من عطف التفسير ، الذي هو أعم من المفسر لأن التبيان الذي أنزله الله قال (أنزل الكتاب والتبيان) التبيان الذي أنزله الله أعم من الكتاب بل يشمل من التبيان ما تعبد الله - تبارك وتعالى - الناس بتلاوته وما لم يتعبد بهم بتلاوته مثل ما في سنة النبي - عليه الصلاة والسلام - هي تبيان وليست هي من الكتاب الذي تعبد الله - سبحانه وتعالى - بتلاوته ، فالتبيان أعم يشمل القرآن ويشمل السنة ، قال (وأنزل الكتاب والتبيان من أجله ..) أي من أجل التوحيد (وفرق الفرقنا) كما قال - عز وجل - { وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا } فالشاهد أن الكتب المنزلة والتبيان المنزل كله لأجل توحيد الله - عز وجل - وإخلاص الدين له .

قال - رحمه الله - :

وكلف الله الرسول المجتبي قتال من عنه تولى وأبى
حتى يكون الدين خالصاً له سرّاً وجهراً دقه وجله
وهكذا أتمته قد كلفوا بذاً وفي نص الكتاب وصفوا

الشرح

قال - رحمه الله - (وكلف الله الرسول المجتبي) أي نبينا - صلى الله عليه وسلم - كلفه الله ؛ أي أمره - سبحانه وتعالى - والمجتبي : أي الذي اجتباؤه ربه واصطفاه ، وهو صفوة المرسلين وخير النبيين وسيد ولد آدم أجمعين - صلوات الله وسلامه - أجمعين ، قال (قتال من عنه) أي عن التوحيد (تولى وأبى) كما قال - عز وجل - { يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير } وفي الحديث الصحيح قال - عليه الصلاة والسلام [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله] وقال تعالى { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله } أي لا يكون شرك ، قال :

(تولى) أي عن التوحيد (وأبى) أي من قبوله إما إعراضاً أو إباءً وامتناعاً واستكباراً ، فكلف الله رسوله - عليه الصلاة والسلام - أن يقاتل من أبى عن قبول التوحيد أو من تولى عن التوحيد وأعرض عنه ، يقاتلهم حتى يكون الدين لله ، وحتى هنا للغاية ، القتال يكون لغاية وهي أن يكون الدين لله - تبارك وتعالى - خالصاً ، (حتى يكون الدين خالصاً له) أي لله - عز وجل - ومعنى خالصاً : أي صافياً نقياً لله وحده لا يجعل مع الله في شيئاً ، لا في الصلاة ولا الصيام ولا الركوع ولا السجود ولا الدعاء ولا في غير ذلك من أنواع العبادة ، فالدين كله يكون لله بأن يصرف وحده ولا يجعل ، مع أحد فيه شيئاً ، قال (حتى يكون

الدين خالصاً له) أي الله - عز وجل - (سرّاً وجهراً) أي بين الإنسان وربّه ، وجهراً يكون الدين لله تبارك وتعالى — وهذا فيه أن الدين لا بد فيه من صلاح الظاهر والباطن ، السر- والعلانية ، قال (دقه وجله) أي الدين ، دق الدين وجله أي قليل الدين وكثيرة ، فالدين يكون كله لله ، فقلوله (دقه وجله) يرجع إلى الدين ، بأن يكون الدين كله لله - تبارك وتعالى - قليل الدين وكثيرة ، قال (وهكذا أمته قد كلفوا) أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - _ (قد كلفوا بذا) الإشارة بقوله بذا إلى قتال من تولى وأبى عن التوحيد (وفي نص الكتاب وصفوا) كما قال تعالى { محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } وكما قال تعالى { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله } قال - رحمه الله - :

وقد حوته لفظة الشهادة فهي سبيل الفوز والسعادة

من قالها معتقداً معناها وكان عاملاً بمقتضاها

بالقول والفعل ومات مؤمناً يبعث يوم الحشر ناج آمناً

حوته : أي التوحيد ولفظة الشهادة : أي لا إله إلا الله ، فقلوله (وقد حوته لفظة الشهادة) أي جمعته واشتملت عليه ، (لفظة الشهادة) كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وهذا معنى قوله قريباً في الفصل وأنه معنى لا إله إلا الله ، فلا إله إلا الله حوت التوحيد أي جمعت التوحيد واشتملت عليه ، (وقد حوته لفظة الشهادة) أي كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، قال تعالى { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم } فهي كلمة الشهادة ، وقال تعالى { إلا من شهد بالحق وهم يعلمون } أي بلا إله إلا الله { وهم يعلمون } أي معنى ما شهدوا به ، (فهي) أي كلمة الشهادة (سبيل الفوز والسعادة) سبيل الفوز أي برضا الله وجنته ، والسعادة أي في الدارين ، لا يسعد إلا أهل التوحيد ، ولا يشقى إلا من أعرض عن التوحيد ، كما قال الله تعالى { فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى } أي يسعد ، و { ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا } وقال تعالى { طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى } بل أنزلناه لتسعد فأهل التوحيد هم أهل السعادة في الدنيا والآخرة والمناقضون للتوحيد هم أهل الشقاء في الدنيا والآخرة ، قال (فهي سبيل الفوز) وهذا هو الفوز الحقيقي كما قال الله { فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز } هذا هو الفوز وإذا جاء الحديث عن الفوز والفائزين ومن الفائز هذا هو الفوز وهذا الفوز الأكبر وكثير من العقول شغلت في باب الفوز إلى الحديث

عن اللعب واللهو ولا يذكرون الفوز إلا في اللعب ، عندما يقال من فاز أو من الفائز أو من هم الفائزون أو فزنا أو أنا الفائز وهذه لا ترد في أذهان كثير من الناس إلا في اللعب واللهو بينما الفوز الحقيقي هو هذا { فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز } الفوز هو بالتوحيد والفائزون هم أهل التوحيد وأهل الصدق مع الله وإخلاص الدين له - جل وعلا - (فهي سبيل الفوز والسعادة) لكن هذه الكلمة ما يكفي فيها مجرد أن يقولها المرء بلسانه ، ولهذا قال الناظم مبيناً وموضحاً قال :

من قالها معتقداً معناها وكان عاملاً بمقتضاها

بالقول والفعل ومات مؤمناً يبعث يوم الحشر ناج آمناً

وهذا فيه التنبيه إلى أن لا إله إلا الله لا تكف بمجرد النطف أو بمجرد قولها باللسان ، بل لابد من هذه الأمور التي بينها قال (من قالها معتقداً معناها) هذا الأمر الأول معتقداً معناها أي عارفاً معنى هذه الكلمة ومدلولها التي تدل عليه ويعتقد ذلك ، فلا يكفي القول ولا يكفي أن يعرف معنى هذه الكلمة وما تدل عليه ، بل لابد مع ذلك أن يعتقد معنى هذه الكلمة واعتقاد المعنى فرعٌ عن معرفته ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى { إلا من شهد بالحق وهم يعلمون } قال غير واحد من المفسرين : إلا من شهد بلا إله إلا الله ، وهم يعلمون أي معنى ما شهدوا به ، فيشهد شهادة الحق معتقداً لها عارفاً بمعناها وما تدل عليه ، قال (وكان عاملاً بمقتضاها) أيضاً لا يكفي مجرد المعرفة والاعتقاد بل لابد من العمل بمقتضاها ، وقد عرفنا أن التوحيد ينتظم جانبين جانب العلم والعمل ، العمل بالمعرفة والعمل بالقيام بالطاعة لله - عز وجل - قولاً وفعلاً كما سيأتي توضيح ذلك عند الناظم - رحمه الله - قال (وكان عاملاً بمقتضاها) أي بما تقتضيه هذه الكلمة من التوحيد والإخلاص وإفراد العبادة ، إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة بجميع أنواعها ، قال (في القول والفعل) في القول والفعل يتعلق بما سبق وهو أن يكون عاملاً بمقتضاها بالقول والفعل أي قولاً وفعلاً ، قوله (في القول) يشمل أمرين :

- قول القلب اعتقاداً

- قول اللسان نطقاً .

القول إذا أطلق في نصوص الكتاب والسنة يشمل قول القلب وقول اللسان ، مثلاً قول الله تعالى { قولوا آمنا بالله } وقول النبي - عليه الصلاة والسلام - [قل آمنت بالله ثم استقم] القول إذا أطلق في نصوص القرآن والسنة يشمل قول القلب اعتقاداً وقول اللسان نطقاً وتلفظاً وإذا قيد بحسب ما قيّد به مثل

قوله تعالى { ويقولون في أفواههم } { ويقولون في أنفسهم } إذا قيد القول في النفس أو قيد باللسان فهو بحسب ما قيّد به أما إذا أطلق فإنه يشمل قول القلب واللسان ، إذن هنا (عاملاً بمقتضاها) في القول أي قول القلب بالاعتقاد الصحيح وقول اللسان بالنطق بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وقوله رحمه الله (والفعل) يشمل أموراً ثلاثة :

- فعل القلب .
- فعل اللسان .
- فعل الجوارح .

يشمل هذه الأمور الثلاثة ، فعل القلب وهي الأعمال القلبية مثل الحياء والخشية الانابة التوكل وغير ذلك ، وفعل اللسان يشمل الأقوال الطيبات والطاعات الزاكيات التي تكون باللسان وفعل الجوارح أنواع الطاعات التي يقوم بها العبد بجوارحه ، إذن التوحيد وتحقيق لا إله إلا الله يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح ، كل هذه تكون خاضعة لله متذللة له ، مفردة لله تبارك وتعالى قائمة بعبادته -جل وعلا- وللذل بين يديه كما أمر (بالقول والفعل) أيضاً لا بد أن يموت على ذلك هذا بالثبات على التوحيد قال : [قل آمنت بالله ثم استقم] { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } فلا بد أن يثبت على التوحيد إلا الممات وإلا لو كان موحداً ثم في آخر حياته تخلى عن التوحيد والعياذ بالله وأشرك ومات على الشرك فهو على ما مات عليه ، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - [إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها] وهذا من فضل الله - سبحانه - لا يكون لمن صدق الله بتوحيده وإيمانه وعقيدته ثم نقل ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الجواب الكافي عن بعض أهل العلم أنه قال [لا يعرف لمن صحت عقيدته أن يختم له بمثل هذه الخاتمة السيئة] فمن صدق مع الله فإن الله لا يخذله يثبته كما قال جل وعلا { يثبت الله المذنبين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث ما يبين هذا المعنى من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال [إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس] أي أنه ليس فيه الصدق مع الله ، أما الذي يصدق مع الله سبحانه ويحسن الالتجاء مع الله فإن الله - عز وجل - لا يخذله ولا يضيع عمله بل ثبته بالقول الثابت إلى أن يتوفاه وهو راضٍ عنه ويبعثه وهو راضٍ عنه ، قال (يبعث) وهذه الثمرة التي لا ينالها إلا الموحد (يبعث يوم الحشر - ناج آمناً) يوم الحشر - أي يوم القيامة يوم يحشر الناس ويجمعون

إلى رب العالمين ، يوم يقول الرب في ذلك اليوم أنا المديان أنا الملك ، في ذلك اليوم يبعث يوم الحشر-ناجٍ وآمناً { لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة } { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون } { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون } فأهل التوحيد الذين اعتقدوا التوحيد وعرفوا معناه وحققوا مقتضاه بالقول والعمل وماتوا على ذلك هؤلاء هم الذين يبعثون يوم القيامة ناجون آمنون ، { الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } .

قال رحمه الله :

فإن معناها الذي عليه دلت يقيناً وهدت إليه
أن ليس بالحق إلهٌ يعبد إلا الإله الواحد المنفرد
بالخلق والرزق وبالتدبير جل عن الشريك والنظير

الشرح

ثم شرح في هذه الأبيات الثلاثة معنى لا إله إلا الله ، قال :

فإن معناها الذي عليه دلت يقيناً وهدت إليه
أن ليس بالحق إلهٌ يعبد إلا الإله الواحد المنفرد

هذا هو معنى لا إله إلا الله الذي دلت عليه (فإن معناها) أي لا إله إلا الله (للذي عليه دلت يقيناً) وحقاً ولا مدلول لها غيره (وهدت إليه) أي أرشدت إليه فهي كلمة هداية بل هي أعظم كلمات الهداية { وهدوا إلى الطيب من القول } فهي أعظم كلمات الهداية وهي أساس الهداية وهي تهدي إلى أعظم أمر وأجل غاية ولهذا كان أفضل الذكر لا إله إلا الله ، ما هو معناها ؟ قال (أليس بالحق إلهٌ يعبد إلا الإله الواحد المنفرد) وذكر هنا في معنى لا إله إلا الله أنه لا بد من الأمرين اللذين سبق الإشارة إليهما الأول النفي في الشطر الأول من البيت والثاني الإثبات في الشطر الثاني ، النفي قال (أليس بالحق إلهٌ يعبد) وهذا كما قدمت النفي العام ، (ليس إلهٌ يعبد) هذا نفي عام لكل ما يعبد سوى الله ، نفي العبودية عن كل ما سوى الله ، والإله هو المعبود وقولنا لا إله إلا الله ، الإله : هو المعبود أي لا معبود حق إلا الله سبحانه وتعالى ، (أليس بالحق إلهٌ يعبد) قوله ليس بالحق هذا قيد مهم في هذا الباب وشاهده تقدم من القرآن { ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل } فقوله (أليس بالحق إلهٌ يعبد) هذا يبين لنا أن خبر لا النافية للجنس في لا إله

إلا الله المحذوف هذا هو تقديره لا إله حق لا يجوز أن نقول لا إله موجود لأن الآلهة التي تعبد بغير حق كثيرة ، ولا إله حق إلا الله ، أما بالباطل كثيرة الآلهة ، الآن في زماننا في بعض المدن الصغيرة من يعبد فيها يقدرون بالآلاف ، فالآلهة التي تعبد بالباطل كثيرة جداً فلا إله إلا الله أي لا إله حق أما الآلهة التي تعبد بالباطل كثيرة ، قال (أليس بالحق إله يعبد إلا الإله الواحد المنفرد) أي إلا الله ، الإله الواحد هذان اسمان من أسمائه تبارك وتعالى ، الإله أي الذي له الألوهية على خلقه أجمعين ، والواحد أي المنفرد الذي لا شريك له تبارك وتعالى ، { قال أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار } الواحد أي المنفرد الذي ليس معه تبارك وتعالى شريك ، قال :

أليس بالحق إله يعبد إلا الإله الواحد المنفرد

بالخلق والرزق وبالتدبير

الجار والمجرور هنا يتعلق بقوله المنفرد أي المنفرد بهذه الأشياء المنفرد بالخلق والرزق وبالتدبير ، الخلق والرزق والتدبير هذه أوصاف لله سبحانه وتعالى ، الخلق فهو منفرد به تبارك وتعالى ، والرزق للذي هو فعله جل وعلا منفرد به ، والتدبير الذي هو التصرف بهذا الكون فضاء ورفعا عطاء ومنعاً ، قبضاً وبسطاً ، عزاً وذلاً ، حياة وموتاً ، هداية وضلالاً إلى غير ذلك هو تبارك وتعالى منفرد بذلك كله ، منفرد بالخلق وبالرزق وبالتدبير ، والفرق بين الرزق والرزق بفتح الراء وبكسرهما ، أن الرزق فعل الله وصفته والرزق بالكسر - هو النعمة التي تفضل بها كما قال جل وعلا { فابتغوا عند الله الرزق } قال (بالخلق والرزق وبالتدبير) (جل) أي تنزه تبارك وتعالى ، (عن الشريك والنظير) أي أن يتخذ معه شركاء أو أن يجعل معه نظير ، قد قال تعالى { قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير } قال رحمه الله :

وفي شروط سبعة قد قيدت وفي نصوص الوحي حقاً وردت

فإنه لم ينتفع قائلها بالنطق إلا حيث يستكملها

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول

والصدق والإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبه

الشرح

جزاها الله خيراً ، يبين ويدعو (وفقك الله لما أحبه) هذه أبيات عظيمة جداً جمع فيها رحمه الله شروط لا إله إلا الله السبعة وبين فيها أن هذه الكلمة العظيمة كلمة التوحيد لا إله إلا الله لا تقبل إلا بشروط وهذه الشروط التي عدها رحمه الله وبسط أدلتها بسطاً وافياً وجميلاً ونافعاً في كتابه معارج القبول ، هي شروطٌ جمعها أهل العلم للاستقراء والتتبع لكلام الله وكلام رسوله - عليه الصلاة والسلام - فهي شروطٌ أخذت من الكتاب والسنة بالاستقراء والتتبع ، والشأن فيها كالشأن في عموم أمور الدين والعبادات ، الآن عندما تأتي للصلاة في كتب الأحكام يقول الصلاة لا تقبل إلا بشروط عددها كذا ، الحج له شروط عدده كذا ، والصيام له شروط عددها كذا ، من أين جاؤوا بها ؟ استقراء ، لهذا لما ذكر الشرط يتبعه بدليله ، يقول الشرط الأول كذا لقوله تعالى كذا ، والشرط الثاني كذا لقوله تعالى كذا ، ولو قال قائل لا يقبل كذا إلا بشرط كذا ولم يذكر دليله يؤخذ ؟ لا يؤخذ ، العبرة بالدليل الذي ساقه ، يقول ابن تيمية [كلٌ يحتج بقوله لا به ، إلا الله ورسوله] فهذه الشروط جمعها أهل العلم من الكتاب والسنة وذكروا على كل شرط أدلته وكما أن الشيخ رحمه الله تعالى بسط أدلة هذه الشروط بسطاً وافياً في كتابه معارج القبول .

قال (وبشروط سبعة قد قيدت) قيدت أي بهذه الكلمة فلا تقبل إلا بها ، قيدت بهذه الشروط السبعة بمعنى أنها لا تقبل من قائلها إلا إذا جاء بهذه الشروط ولهذا نقل الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عن وهب بن منبه - رحمه الله - أنه قيل له : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح [مشيراً بهذا إلى أن لا إله إلا الله التي هي مفتاح الجنة لا يكون هذا الفتح للجنة بهذا المفتاح إلا إذا جاء بالشروط ، وقيل للحسن البصري - رحمه الله - أليس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ قال : بلى من أدى حقها وفرضها] وقال الحسن للفرزدق [إن لـ لا إله إلا الله شروطاً فإياك وقذف المحصنات] أي أن لا إله إلا الله لابد أن يحقق الإنسان شروطها العظيمة التي دل عليها كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - .

(وبشروط سبعة قد قيدت) إن قلت من أين هذه الشروط ؟ ومن أين هذه القيود ؟ وما الدليل عليها ؟ جاءك الجواب في الشطر الثاني قال (وفي نصوص الوحي حقاً وردت) نصوص الكتاب والسنة حقاً وردت أي جاءت فهذه الشروط السبعة التي سيذكرها رحمه الله هي شروط عظيمة لكلمة التوحيد وردت في كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - ثم قبل أن يبين هذه الشروط ويعدها بين أهميتها فقال :

فإنه لم ينتفع قائلها بالنطق إلا حيث يستكملها

هذا يبين لنا أهمية هذه الشروط أن قائل لا إله إلا الله لا ينتفع بمجرد قوله لا إله إلا الله ، مجرد تلفظه بلا إله إلا الله هذا لا ينتفع به وحده ، متى ينتفع ؟ قال (حيث يستكملها) إذا استكمل الشروط وجاء بها انتفع بها ، وأما إذا لم يأت بهذه الشروط فإن مجرد قوله لا إله إلا الله فإنه لا ينفعه ، ثم بينها رحمه الله شرطاً شرطاً فقال :

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول

والصدق والإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبه

الشرط الأول أو البيت الأول ختمه بكلمة فيها التنبيه على أهمية هذا الأمر وهو قوله (فادر ما أقول) أي انتبه أعط هذا الأمر اهتمامك وعنايتك ورعايتك انتبه ، ادر ما أقول لأن هذا الأمر ينبغي لكل مسلم أن ينتبه له وأن يعيه وختم البيت الثاني بهذه الدعوة العظيمة قال (وفقك الله لما أحبه) ومن أعظم ما يحبه الله أو أعظم ما يحبه الله من عباده هذا التوحيد الذي تدل عليه لا إله إلا الله بشروطها وضوابطها الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

أبدأ الآن ببيان هذه الشروط وأريد أن أنبه بعض الأخوة الذين يريدون أن يقومون أن عاقبة الصبر حميدة ، فيه هدية لمن يصبر ومن يذهب نسأل الله أن يحفظه في حله وترحاله .

قال رحمه الله :

العلم واليقين والقبول والانقياد .

العلم هذا الشرط الأول ، العلم بمعنى هذه الكلمة هذا شرط من شروطها ، دليله قول الله تعالى { فاعلم أنه لا إله إلا الله } وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه - [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة] .

العلم أي بمعناها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل ، فلا إله إلا الله لا تنفع قائلها إلا إذا علم معنى هذه الكلمة العظيمة وعرف ما تدل عليه .

اليقين : انتفاء الشك والريب وهو تمام العلم وكماله ، فلا تقبل لا إله إلا الله إلا باليقين والدليل على ذلك قول الله سبحانه { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا } ومن السنة قول النبي - عليه الصلاة والسلام - [أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبداً غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة]

فاشترط اليقين ، هذا قيد من الذي وضعه ؟ والقيد الأول من الذي وضعه ؟ [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله] من الذي وضعه ؟ فهذه قيود حقاً وردت في كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - .

الشرط الثالث : القبول المنافي للرد ، والله سبحانه وتعالى قال عن المشركين { إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون } لم يقبلوا { ويقولون إنا لطاركونا أهتنا لشاعر مجنون } وقالوا أيضاً { أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب } .

الشرط الرابع : الانقياد المنافي للترك كما قال تعالى { وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له } فالانقياد هو الامتثال والقيام بطاعة الله ، ولهذا القبول يتعلق بالقول والانقياد يتعلق بالعمل ، فقائل لا إله إلا الله لابد أن ينقاد لله - عز وجل - مطيعاً مستسلماً خاضعاً لله تبارك وتعالى .

الشرط الخامس : الصدق المنافي للكذب ، والصدق أن يواطىء القلب اللسان ، وقد قال الله تعالى عن المنافقين { إذا جاءك المنافقين قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون } .

الشرط السادس : الإخلاص المنافي للشرك والرياء والإخلاص مأخوذ من الخالص وهو الصافي النقي ، قال تعالى { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } وقال تعالى { ألا لله الدين الخالص } وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام [من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة] .

قال (والمحبة) وهذا الشرط السابع : المنافي للبغض والكراهة ، قال تعالى { ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله } .

وتطالعون شرح الشيخ رحمه الله تعالى لهذه الآيات وذكره للأدلة عليها في كتابه معارج القبول .

أوصيكم بثلاث وصايا :

الأولى : حفظ المنظومة .

الثانية : قراءة كتاب معارج القبول كاملاً .

الثالثة : أن تعتنوا بالعمل بما تعلمون .

اللهم انفعنا بما علمتنا واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا واهدنا إليك صراطاً مستقيماً

وجزاكم الله خيراً وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .